الملكة عصمة الدين

شجرة الدر

هي أول ملكة عربية تحكم في الدولة الإسلامية.

وكان هذا شيئاً غير مألوف.

بدأت حياتها كجارية، وكانت تتمتع فضلاً عن جمالها وجاذبيتها: بفراسة ودهاء وعزيمة من حديد، أحبها نجم الدين الملك السابع في حكم الأيوبيين.

فلما ولدت له ابنه خليل، تزوجها ورفعها بجانبه على العرش، وقد كان الملك الصالح متيماً بها، يحوطها بكل الاحترام والتبجيل، أما هي: فقد كانت تعرف كيف تؤثر عليه، وأظهرت شجرة الدر قدرة خارقة، وموهبة غير عادية في إدارة الأمور، فأدهشت الملك الصالح: بحصافة رأيها وفضل مشورتها، فارتفع قدرها لديه وعظمت مكانتها، فأطبق يدها في الحكم، مما زاد من نفوذها فقويت شوكتها وسلطانها.

وكانت شجرة الدر في كل هذا نعم الزوجة المخلصة المشاركة لزوجها في كل الأزمات والمواقف.

obeikandl.com

وكانت مصر، منذ أن تولى الملك الصالح حكم البلاد خلفاً لوالده الملك الكامل: تغلي بنار الفتن والثورات، فلما كادت الأوضاع تستقر، حتى فوجئ الملك الصالح بهجوم الصليبيين عليه، حيث حاصر الأسطول الفرنسي دمياط.

فلما وصل الخبر إلى الملك أخذ يجمع القواد، ويعد الجيش لمواجهة خطر الصليبيين، وتوجه الجيش بقيادة الأمير فخر الدين إلى دمياط، حيث بدأت الحرب التي انتهت ـ للأسف ـ بانتصار الصليبيين، واستيلائهم على دمياط، وتقهقر جيش المسلمين إلى المنصورة. عندئذٍ أسرع الملك الصالح إلى المنصورة، لتحصينها وإعادة رسم خططه العسكرية، وتنظيم صفوف الجيش مرة أخرى، وعد أن أتم ذلك، أخذ يحرز فوزاً تلو الآخر في بعض المعارك، مما رفع الروح المعنوية للجيش والشعب، فبدأ الاستعداد لمعركة حاسمة: تعلم الصليبيين ألا يفكروا مرة أخرى في غزو البلاد.

ولكن فجأة سقط الملك الصالح.

خر صريعاً تحت وطأة المرض الفتاك، وكان لم يتعد الأربعين من عمره.

وبالطبع، لم يفكر أحد أن يذيع الخبر، خوفاً من اضطراب الجيش، أو ما قد ينتج من فوضى وتشتت، فلما مات في عز المعمعة وقلب المعركة: تم نقل الجثة سراً في تابوت من المنصورة

إلى قصر المنيل، حيث تقطن شجرة الدر، ودفن في قلعة الروضة ولم يعلم بنبأ الوفاة سوى بعض الأفراد المقربين جداً والمضمون ولاؤهم، بعد ذلك أرسلت شجرة الدر إلى قائد الجيوش فخر الدين، وإلى رئيس الأغوات، تطلب منهما الحضور على الفور لمقابلتها لأمر عاجل، فلما حضرا أخبرتهما بالنبأ، وأوضحت لهما الأسباب التي حدت بها إلى كتمان الأمر، فأقرّا حسن تصرفها.

ثم قرر الثلاثة في تلك الجلسة اختيار واحد من أخلص أمراء الجيش، وإرساله إلى الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح وولي عهد السلطنة، ليحضر على الفور، ووقع الاختيار على أقتاي ليقوم بهذه المهمة.

وبعد ذلك بعثت شجرة الدر بالمكاتيب إلى قادة الجيش والأمراء بالأوامر الملكية: بإطاعة الملك الصالح في إقامة العهد للملك المعظم توران شاه ابنه، وأن يقرن اسم ولي العهد باسم الملك الصالح في خطب الجمعة وعلى المنابر.

وعندما حضر توران شاه، كانت شجرة الدر قد نجحت في السيطرة على تماسك البلاد وتهيئة الناس للخبر الأليم، فأعلن توران شاه وفاة الملك وتوليه الأمر من بعده، أما شجرة الدر فانزوت تقيم المآتم حداداً على زوجها، تاركة مقاليد الحكم في يد ابنه.

وكان أول شيء فعله توران شاه: تنفيذ رغبة والده في خوض المعركة الفاصلة، فأخذ يهاجم الصليبيين، ثم وضع خطة لحصارهم والتضييق عليهم، كما قام بالاشتباك مع أسطولهم البحري،وأغرق حوالي خمسين من سفنهم، وفي النهاية انتصرت جيوش مصر على الصليبيين، الذين فروا مهرولين مذعورين، بينما أُسر ملك فرنسا لويس التاسع، هو ورجاله وحاشيته وخمسمائة من جنوده، واقتاده العسكر إلى المنصورة، حيث وضعوه أسيراً في دار القاضي فخر الدين.

قرر توران شاه بعدما أحرزه من نصر، وما استقام له من مُلك: أن يقيم في فارسكور، وأن يجعل فيها معسكره، حيث شيد هناك قصراً فخماً من الخشب على ضفة النيل، وبنى بجانبه برجاً عالياً.

وقد جعل توران شاه هذا القصر الذي بناه: وكراً خاصاً لملذاته الشخصية، تلك الملذات التي انغمس فيها ناسياً أمر الصليبيين وأمر الدولة. أرسل توران شاه إلى شجرة الدر: يطلب منها رد أموال أبيه وممتلكاته وتسليمها له، فلما أجابت أنها أنفقت كل هذا في الجهاد المقدس، ولم يبق لديها شيء، غضب توران شاه غضباً شديداً، وهددها باستعمال العنف وأخذ ماله بالقوة.

ومنذ ذلك الحين أصبح توران شاه: مصدراً للمشاكل، وعبئاً على الحكم!

كان يستقبل يومه والكأس في يده، فيمضيه في السكر والعربدة، جامعاً حوله النساء الفاتنات، منغمساً في الشهوات لاهياً بالملذات، يتناول شئون الحكم مخموراً ثملاً، فيصدر الأحكام الجامحة

والأوامر التعسفية، بل لقد صب نقمته على المماليك وراح يضطهدهم دون سبب وجيه.

وفي النهاية نجح توران شاه في أن يجعل من نفسه: شخصية بغيضة ممقوتة.

فقط بعد أربعين يوماً من توليه السلطة!

أما الرعية فقد كان رأيهم: أن توران شاه حاكم ظالم وملك مستبد.

ومن بعيد، كانت شجرة الدر رقيبة على الأحداث، فلم يعجبها الوضع، ورأت أن توران شاه ليس جديراً بالعرش.

لذا: استدعت المماليك لاجتماع طارئ، حيث تآمرت معهم على قتل توران شاه لإنقاذ البلاد من استبداده ومجونه!

وفي ٧ محرم عام ٦٤٨ هجري، فوجئ توران شاه بأحد المماليك يقتحم قصره وسيفه مشهراً، وقبل أن يستوعب الملك الموقف، كان الجندي قد سدد نحوه السيف ليقتله، إلا أن توران شاه تفادى الضربة في اللحظة الخيرة، فجاءت على يده وقطعت أصابعه، فاشتد جزعه وتملكه الرعب، ففر من وجه قاتله مضرجاً بالدماء، وأسرع يعتلي البرج محتمياً فيه، فلما رآه المماليك حاصروا البرج وطالبوه بتسليم نفسه إليهم.

لكن الملك صاح مستعطفاً يطلب منهم الأمان والرحمة، فلم يستجب أحد لندائه، وأشعل المماليك النار في البرج، فلما وجد

توران شاه النار محيطة به تكاد تقضي عيه، رمى بنفسه في النيل، وأخذ يسبح بكل قوته، محاولاً النجاة، لكن الجموع كانت خلفه بالمرصاد، فنالته السهام، ولحقه المطاردون ومات توران شاه الملك المعظم آخر الحكام الأيوبيين هذه الميتة الشنعاء، التي أثارت دهشة المؤرخين على مر العصور: حيث مات مذبوحاً ومحروقاً وغريقاً تلاحقه لعنة الناس عليه.

وبعد موت الملك المعظم، انتخب الأمراء والقواد شجرة الدر ملكة للبلاد بإجماع الآراء، ولُقبت بـ"الملكة عصمة الدين"، في نفس الوقت الذي كان فيه الأمير حسام الدين قد انتهى من مفاوضات الصلح مع الصليبيين، والتي كانت تنص على أن تدفع فرنسا غرامة حربية لمصر قدرها أربعمائة ألف دينار، مقابل الإفراج عن الملك وجنوده.

ووسط هذه الفرحة المزدوجة: تقلدت شجرة الدر حكم البلاد وهي في الأربعين من عمرها.

وقبل الأمراء الأرض لها من وراء الحجاب.

وأصبحت بذلك تاسع من تولى السلطنة بمصر من الأسرة الأيوبية.

وكان حكمها هو الحد الفاصل بين نهاية الأيوبيين وبداية حكم المماليك.

تركت الملكة قصر المنيل، وانتقلت إلى القلعة المشهورة التي بناها الناصر صلاح الدين الأيوبي، والتي كانت مقراً لحكم الملوك السابقين، لما تمتاز به من موقع حصين وتجهيزات أمنية عالية، ومن هناك بدأت تحكم مصر.

كان أول شيء فعلته شجرة الدر بعد جلوسها على العرش هو: إصدار المراسيم والمكاتبات، إلى كل العاملين على الأمصار بتخفيض الضرائب، ورفع المعاناة عن كاهل عن الشعب، ثم أخذت تفرق الوظائف على الأمراء، وتهب المماليك الإقطاعيات، كما أغدقت على خلصائها الأموال والخيول، ثم جعلت عز الدين أيبك الصالحي أتابك عسكرها، وهي وظيفة تعني رئيس الوزراء حالياً، ورغم أن أيبك كان معروفاً بقوته وصلابته وذكائه وحسن إدارته لشئون الرعية، ورغم أنه كان محبوباً من عامة الشعب ومصدر ثقتهم، إلا أن أهم مزاياه، التي أهلته لهذا المنصب المرموق، كانت: الولاء التام للملكة وتواضعه بين يديها. وفعلاً فإن عز الدين أيبك لم يكن يقطع برأي ولا يأمر بأمر، إلا بعد استشارة الملكة وأخذ رأيها في كل صغيرة وكبيرة.

وكانت شجرة الدر تصدر المراسيم، وعليها توقيعها باسمها وخطها.

وكانت الخطب تذكر اسمها على منابر مصر والشام، داعين لها بعد الخليفة، فقد كانت الخطباء تقول: ".. واحفظ اللهم الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والستر الجليل".

ولكن الخليفة المستنصر لما بلغه أن أهل مصر سلطنوا عليهم امرأة: استنكر هذا الوضع، ورفض الاعتراف بشجرة الدر، وأرسل إلى الأمراء رسالة لاذعة قال فيها: "أعلمونا، عن كان ما بقي في

مصر من الرجال من يصلح للسلطنة، فنحن نرسل لكم من يصلح لها"، ثم أخذ يهدد ويتوعد ويحض الأمراء على خلع شجرة الدر. فلما وصلت هذه الرسالة عقدت الملكة اجتماعاً موسعاً مع أركان الدولة، وأخذوا يتشاورون للخروج من هذا المأزق الصعب، حتى وصلوا إلى الحل، واتفقوا بالإجماع على أن تتنازل شجرة الدر عن العرش إلى عز الدين أيبك بشكل رسمي، على أن تعود للحكم شريكة له بأن يُعقد قرانهما بعد توليه السلطة.

وتم تنفيذ هذا القرار، خلعت شجرة الدر نفسها من الملك، وأصبح عز الدين أيبك سلطاناً على مصر، ولُقّب بـ"الملك المعز"، أو "الملك العزيز".

ولكن اختلاف الأدوار لم يؤثر على واقعية الحال، لأن شجرة الدر ظلت هي الحاكمة الفعلية للبلاد، تنهي وتأمر من وراء الحجاب.

وبعد ذلك الأحداث توالت بسرعة رهيبة.

فقد وقعت الفتنة المعروفة، وخرج رجل من الأقاليم الشرقية، هو يوسف مظفر الدين، أحد أبناء الملك المسعود، وادّعى أحقيته لحكم مصر، وجمع حوله الأتباع والمؤيدين، ثم كوّن جيشاً قوياً ووضع أقطاي قائداً له، وزحف إلى القلعة هادفاً خلع أيبك وتنصيب نفسه بدلاً منه، ولكن أيبك الذي كان على علم بنوايا يوسف، استعد له، فلما توجه الجيش لحصار القلعة: فوجئ مقاومة عنيفة، ودار قتال

رهيب، استطاع أيبك فيه: تشتيت شملهم، وتمزيق صفوفهم، وقتل منهم أعداداً كثيرة، ثم نال من قائد الجيش أقطاي، فقطع رقبته ورمى برأسه وسط جنوده الذين ما إن رأوا هذا حتى ملأهم الذعر، وأخذوا يفرون من المعركة، ثم بعد ذلك قبض أيبك على خصمه زعيم الثورة وحبسه.

ولما انتصر الملك العزيز أيبك على خصمه العنيد، زادت هيبته وعظم سلطانه عند الرعية، كذلك فقد ارتفع قدره وزاد شأنه لدى نفسه هو شخصياً.

وأصبح وضع التابع الأمين المخلص المطيع لمليكته: وضعاً لا يليق به، ولا بما وصل إليه من الرفعة والمجد، لذلك تمرد الملك العزيز على شجرة الدر!

بل لقد صارت وكأنها تكتم على أنفاسه بملاحقته والاستفسار عن كل شيء.

وضاق ذرعاً بجواسيسها الذين يملأون القصر، ويعدون عليه أنفاسه.

وإن كان سلطان الحب هو الذي أوقع به، فجعله عبداً ملك يمين الملكة.

وإذا كانت فتنتها وجاذبيتها وعظمتها الفطرية هي التي سحرته من قبل.

فإن نار العشق خمدت مع الأيام.

خاصة: وأن شجرة الدر كانت تكبر أيبك سناً، وكانت قد تجاوزت مرحلة ازدهار الشباب عندما تزوجها، وأحست شجر الدر بالتغيرات التي بدأت تطرأ عل علاقتها بأيبك، ورأته يتحرر من سلطانها شيئاً فشيئاً، ويخرج تدريجياً من دائرة نفوذها.

فقررت أن تواجهه بشكواها، فلما فعلت: فوجئت باحتدام المنافسة بينهما بشكل خطير، حيث اتهمها أبيك صراحة بأنها امرأة متسلطة، تحركها شهوة الملك ويتملكها الغرور، فردت عليه قائلة إنه نسي فضلها، وإنها هي التي رفعته بجوارها على العرش، وكانت السبب في كل ما وصل إليه، وإنه ليس من رد الجميل أن يهينها إلى هذا الحد.

عندئذٍ.. ترك أبيك القصر غاضباً

ومن يومها، لم تنته بينهم المنازعات والمناقشات الصاخبة، مما أدى إلى ازدياد النفور، وتوسيع هوة الخلاف.

وأصبح الملك العزيز لا يتواجد في القلعة إلا نادراً، وكان يتهرب عامداً من أي موقف يجمع بينه وبين الملكة.

إلى أن بدأت النهاية!!

علمت الملكة عن طريق جواسيسها: أن الملك العزيز خطب لؤلؤة بنت الملك الرحيم بدر الدين صاحب الموصل، وأنه ينوي إتمام الزواج في أقرب وقت.

عندئذٍ قررت أنه: لابد أن يموت أبيك!

وفوراً وضعت خطة القتل:

ذهب أبيك إلى حمام القلعة كي يغتسل، وهناك فوجئ بسنجر الجوهري ومجموعة من الخدم: ينقضون عليه فشلّوا حركته وخنقوه حتى أسلم الروح، بعد ذلك طلبت شجرة الدر أن يحضر أبو

مرزوق، أحد خلصائها، فلما حضر: أطلعته عل الأمـــر، وطلبـت مشورته فيما تفعل، فلم يشر عليها بشيء وقال: "لا أعرف ما أقـول لك، لقد أوقعت نفسك في ورطة فظيعة ليس لها مخرج"، وانصـوف آسفاً على ما حدث.

فكرت شجرة الدر بعد ذلك في الأمير جمال الدين بـــن إيـد غـدي باعتباره الأصلح لمشاركتها في العرش، فاستدعته، وعرضت عليه الأمر، فأبى ورفض، فلجأت إلى عز الدين أيبك الحلبي، فرفض هو أيضا.

في ذلك الوقت كان خبر قتل الملك العزيز: قد شاع بين النـــاس، وحدث هرج كبير، وثار أهل الملك الميت، خاصة زوجته الأولـــى وابنه الوحيد نور الدين، وقد عقدوا العزم على الانتقـام مـن قتلـة الملك، ولكن بعض الأمراء أشفقوا على شجرة الـــدر مـن بطـش أنصار الملك العزيز وأسرته، فحالوا بين الملكة وبين من يريـــدون النيل منها، أما هي فقد احتمت مع قتلة زوجها في دار السلطنة.

ولكن إرادة الانتقام انتصرت في النهاية.

فقد استطاع الأمراء الموالون للملك العزيز "أيبك" أن يصلوا إلـى شجرة الدر، وأن يقبضوا عليها، واقتادوها إلى البرج الأحمر وهناك تم حبسها.

ولكن أم نور الدين التي كانت شجرة الدر: عدوتها الوحيدة في الحياة، لأنها: أولاً: أرغمت أيبك أن يطلقها، وثانياً: لأنها قتلت أبا ابنها الوحيـــد وتسببت في يتمه، ولم تكن لترضى أن تترك شجرة الدر لتعيش!

وعن طريق الرشوة تمكنت من الوصول إلى الملكة المسجونة، حيث أمرت جواريها فانهالوا عل رأسها ضرباً بالقباقيب، وعند أن ماتت شجرة الدر بهذه الطريقة الوحشية، ألقوا بجثتها شبه عارية لا يسترها سوى سروال رقيق، من برج القلعة إلى خندق حقير.

وفي يوم السبت ١١ ربيع الآخر عام ٦٥٥ هجري وُجدت شجرة الدر مقتولة، ومجردة في هذا الخندق، فحُملت إلى المقبرة التي كانت قد بنتها لنفسها بالقرب من مشهد السيدة نفيسة، في نفس المسجد المعروف باسمها في قلب القاهرة. أما الخدم والأغوات الذين اشتركوا في قتل الملك أيبك، فقد تم القبض عليهم وصُلبوا داخل القلعة.